

الوصية الخالدة

محمد سالم الخضر
رئيس مركز البحوث والدراسات بالمبيرة

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

٢٢٩,٣ الخضر ، محمد سالم . الوصية الخالدة / محمد سالم الخضر. ط ١. - الكويت: مبرة الآل والأصحاب، ٢٠٠٨ ٨٠ ص ؛ ٢٤ سم. - (قضايا التوعية الإسلامية ؛ ١١) ردمك : ٢ - ٦ - ٦٧٤ - ٦٦٤ - ٩٩٩٠٦ - ٩٧٨
١- التوسل ٢- الأدعية والأوراد ٣- الشفاعة أ - العنوان ب- السلسلة
رقم الإيداع : ٢٨٩ / ٢٠٠٨ ردمك : ٢ - ٦ - ٦٧٤ - ٦٦٤ - ٩٩٩٠٦ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب
إلا لمن أراد التوزيع الخيري بشرط عدم التصرف في المادة العلمية

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٥٦٠٣٤٦

ص.ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

www.almabarrah.net

E-mail: almabarrh@gmail.com

رقم الحساب: بيت التمويل الكويتي ٢٠١٠٢٠١٠٩٧٢٣

إهداء

إلى محبي آل البيت والصحابة الأطهار الأخيار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صورة مخطوطة قديمة بها:

قول الله عز وجل في آخر سورة العنكبوت «جزء من آية ٦٩» :

﴿... جَاهِدُوا فِيْنَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ثم البسملة ثم قول الله عز وجل في أول سورة الروم «الآية ١ وأول

كلمة من الآية ٢» :

﴿الرَّحْمٰنُ الرَّحِیْمُ ۝١ عَلَّمَتْ ...﴾

الفهرس

٩ المقدمة :
١١ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾
١٦ الدعاء هو العبادة
٢٠ قالها أنبياء الله فماذا تقول أنت ؟
٢٤ وقالها آل البيت عن أنفسهم بكل صراحة
٢٦ التوسل شيء والاستغاثة بالمخلوقين ودعاؤهم شيء آخر
٣١ لا واسطة بين العبد وربه
٣٥ ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾
٤٤ تشابهت الصور واختلفت المسميات
٤٧ آل البيت يعلمون محبيهم التوسل المشروع
٥٢ آل البيت عليهم السلام يستغيثون بالله فبمن تستغيث أنت ؟ ..
٦٠ لأي علة أغرق الله تعالى فرعون ؟
٦٢ الاستغاثة بالزهراء والأئمة أم بخالقهم ؟
٧١ أليس الله بكاف عبده ؟
٧٧ كفانا شعارات
٧٩ المراجع

المقدمة

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرافع
للسماء بغير عمد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي
القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب
الأسباب، ورفع همهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر
سواه، فلم يعبدوا إلا إياه، علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله، وتحقيقاً
بأن جميع أصناف الخلق عباداً أمثالهم، لا يُبتغى عندهم الرزق.

والصلاة على محمد قانع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل، وعلى
آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فهذه رسالة لطيفة في (توحيد رب العالمين) كتبها بعد
لقائي بسيد من سادات آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين
نجلهم ونتقرب إلى الله تعالى بحبهم.

والذي أشار عليّ مشكوراً أن أكتب رسالة في (التوحيد) مدبجة
بنصوص القرآن والسنة وكلام أئمة آل البيت لما في ذلك من الفائدة
والنفع لعموم الأمة.

فاستجبت لرغبته على استحياء مني أن أتقدم على من يفضلني
علماً وتقوى لكنني رأيت أن تخاذلي عن كتابة هذه الرسالة هو (كتمان

للعلم) مع ما وقفت عليه من روايات لآل بيت النبوة تخالف ما يدعيه بعض المنتسبين إلى مذهبهم اليوم.

فقد تابعت الفتن في هذا الزمان حتى أصبح ذو القلب الحى ينكر ما يراه ويسمعه، يسأل الله تعالى أن لا يجعل فتنته في دينه.

وأى فتنة أعظم من فتنة الانصراف عن تحقيق معنى الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؟ فكم من فاتن عنها بعلم وكم من مفتون عنها بتقليد؟

فكان من الواجب عليّ أن أشحذ همتي، وأقوي عزيمتي مستعيناً بالله تعالى، سائلاً إياه التوفيق والسداد في إيصال كلمتي للناس، فإن بلغت ما أرجو لها أن تبلغه فالحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات وإن لم تبلغ ذلك سألت الله تعالى أن لا يجرمني الأجر وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، لا رياء فيه ولا سمعة.

وليعلم القارئ الكريم أن إرضاء الناس غاية لا تدرك، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أَرْضَى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأَرْضَى عنه الناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

لقد عظم الله تعالى أمر الشرك فقال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^١ وقال في موضع آخر من كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^٢.

فأخبر أنه لا يغفر الشرك مع عدم التوبة منه، وأنه يغفر ما سواه بغير التوبة - إن شاء-^٣.

وقد بلغ من اهتمام الإمام علي بهذه الآية أن قال عنها: (ما في القرآن آية أحب إلي من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^٤).

ولخطورة (الشرك) وصفه تعالى بأنه ظلم عظيم فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^٥، فمن أشرك فقد ظلم نفسه وأوردها المهالك،

^١ سورة المائدة آية ٧٢

^٢ سورة النساء آية ٤٨

^٣ الشيخ المفيد في (المسائل السروية ص ١٠١)

^٤ التوحيد لابن بابويه القمي ص ٤٠٩

^٥ سورة لقمان آية ١٣

بخلاف أهل الإيمان الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^١.

والمشرك عمله محبط، مردود عليه، لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً كما قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٢.

بل خاطب نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^٣.

ولتحقيق معنى التوحيد الخالص، ولتحرير العباد من العبودية لغير الله عز وجل أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٤.

^١ سورة الأنعام آية ٨٢

^٢ سورة الأنعام آية ٨٨

^٣ سورة الزمر آية ٦٥

^٤ سورة النحل آية ٣٦

فكان كل رسول أرسله الله تعالى يفتتح دعوته لأمته بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^١.

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفِقُونَ﴾^٢.

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأمره ربه عز وجل أن يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾^٣. فكان عليه الصلاة والسلام يسير بين الناس وهو ينادي (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وعمه أبو لهب يرميه من خلفه بالحجارة وبكلمات من السفه^٤.

^١ سورة الأعراف آية ٥٩

^٢ سورة الأعراف آية ٦٥

^٣ سورة الأنعام آية ١٥١

^٤ رواه الإمام أحمد في مسنده ح (١٦٠٦٦) ط. مؤسسة قرطبة. وقال الشيخ شعيب: صحيح لغيره، وصححه الشيخ الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (١٤٣).

وإذا كان صاحب القلب الحي يستنكر الظلم ويستهجنه ويعادي
الظلمة ويغضهم لعظيم جرمهم، فإنَّ أعظم الظلم هو الشرك بالله كما
أسلفنا، والمشرك أحق بالبغيض في الله لإساءته الظن بالله وتعلقه بمن
سواه.

وفي حديث عبد الله بن مسعود أنه سأل رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم (أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك!)^١.
ولهذا كان التحرز من (الشرك) والبراءة من المشركين ومن شركهم
من أوجب الواجبات.

ومن هذا المنطلق أعلن إبراهيم عليه السلام براءته من المشركين
ومما يعبدون من دون الله ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُفِّرُوا بَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^٢ وكما قال في
سورة الأنعام: ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عَنِّي بِرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾^٣.

^١ مستدرك الوسائل ٣٣٢/١٤ والحديث رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى:
﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ح (٤٤٧٧) ورواه مسلم في الإيمان باب كون
الشرك أقيح الذنوب ح (٨٦).

^٢ سورة الشعراء آية ٧٥

^٣ سورة الأنعام آية ٧٨

هذه ملة إبراهيم عليه السلام التي قال الله تعالى عنها: ﴿ وَمَنْ

يَرْغَبُ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾^١.

وحض الناس على اتباعها فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي

إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا

بِكُرْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾^٢.

^١ سورة البقرة آية ١٣٢

^٢ سورة المتحنة آية ٤

الدعاء هو العبادة

إنّ الدعاء هو العبادة، حقيقة يستشعرها المؤمن وهو يرفع يديه إلى السماء سائلاً الله تعالى خيري الدنيا والآخرة.

بهذا المعنى الجليل تضافرت نصوص الكتاب والسنة وأقوال آل البيت عليهم السلام المؤكدة لهذا المعنى، فنصت على أنّ الدعاء هو العبادة وأنّ صرف الدعاء لغير الله تعالى هو تأليه لغيره سبحانه.

فعن النعمان بن بشير قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول على المنبر: (إنّ الدعاء هو العبادة، ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾^١).

وفي مناجاة الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) في الصحيفة السجادية الكاملة: (وقلت: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وقلت: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً، وتوعدت على

^١ رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن - حديث (٢٩٦٩) وغيره بسند صحيح.

تركه دخول جهنم داخرين، فذكروك بمنك، وشكروك بفضلك،
ودعوك بأمرك، وتصدقوا لك طلباً لمزيدك)¹.

وروى الميرزا النوري الطبرسي في (مستدرك الوسائل) عن القطب
الراوندي في (دعواته) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:
(أفضل عبادة أمتي بعد قراءة القرآن الدعاء، ثم قرأ ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ إِنِّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
ألا ترى أنَّ الدعاء هو العبادة؟)².

وروى الكليني في (الكافي) عن أبي جعفر (الباقر) أنه قال: إنَّ الله
عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ﴾ قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء³.
وروى الكليني في الكافي والحر العاملي في (وسائل الشيعة) عن
الإمام جعفر الصادق أنه قال: (إنَّ الدعاء هو العبادة)⁴.

¹ الصحيفة السجادية الكاملة للإمام علي بن الحسين (زين العابدين) ص ٢٢٤-٢٢٥

² مستدرك الوسائل ١٥٩/٥ .

³ الكافي ٤٦٦/٢ .

⁴ الكافي ٣٣٩/٢ (كتاب الدعاء - باب فضل الدعاء والحث عليه)، ووسائل الشيعة ٢٣/٧
(أبواب الدعاء - باب الدعاء والحث عليه).

وعن أبي جعفر الباقر أنه قال (أفضل العبادة الدعاء)^١.
وفي (تهذيب الأحكام) للطوسي عن ابن عمار قال: قلت لأبي
عبد الله - جعفر الصادق - : (رجلان افتتحا الصلاة في ساعة واحدة
فتلا هذا القرآن فكانت تلاوته أكثر من دعائه، ودعا هذا أكثر فكان
دعاؤه أكثر من تلاوته ثم انصرفا في ساعة واحدة أيها أفضل؟ قال:
كل فيه فضل، كل حسن. قلت: إني قد علمت أن كلا حسن وأن كلا
فيه فضل، فقال: الدعاء أفضل، أما سمعت قول الله عز وجل:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، هي والله العبادة، هي
والله أفضل، هي والله أفضل أليست هي العبادة؟! هي والله العبادة،
هي والله العبادة، أليست هي أشدهن؟! هي والله أشدهن، هي والله
أشدهن^٢.

وعن سدير قال: قلت لأبي جعفر الباقر: أي العبادة أفضل؟ فقال:
ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يُسأل ويطلب مما عنده، وما

^١ وسائل الشيعة ٣٠/٧ (باب استحباب اختيار الدعاء على غيره من العبادات المستحبة)

^٢ تهذيب الأحكام ١٠٤/٢ .

أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده)^١.

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر الباقر قال: قلت له: ما عنى بقوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾؟ قال: كلمات بالغ فيهن، قلت: وما هن؟ قال: (كان إذا أصبح قال: أصبحت وربى محمود، أصبحت لا أشرك بالله شيئاً، ولا أدعو معه إلهاً، ولا أتخذ من دونه ولياً)^٢.
وقد سئل أيضاً: (أي العبادة أفضل؟ فقال: ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يسأل)^٣.

كل هذه النصوص تدل دلالة قطعية على أنّ الدعاء عبادة وأنّ صرف الدعاء لغير الله تعالى يعنى بكل وضوح صرف العبادة لغير الله تعالى.

^١ نفس المصدر

^٢ الكافي ٣٨٨/٢ (كتاب الدعاء - باب القول عند الإصباح والإمساء)

^٣ نفس المصدر

قالها أنبياء الله فماذا تقول أنت؟

عندما أنكر إبراهيم عليه السلام على قومه دعاءهم أصنامهم
وتقديمهم القرابين لها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾^١، نعم .. كيف تدعون وتستغيثون بمن
لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً!

وقالها الله تعالى عن رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ قُلْ
لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴾^٢.

يقول الفضل بن الحسن الطبرسي في تفسيره للآية الكريمة:
﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ﴾ هو إظهار العبودية، أي أنا عبد ضعيف لا
أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ربي
ومالكي من النفع لي والدفع عني، ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ ﴾
لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، فكنت أستكثر المنافع وأجتنب

^١ سورة الأنبياء آية ٦٦

^٢ سورة الأعراف آية ١٨٨

المضار، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب، ورابحاً وخاسراً في المتاجر، ﴿إِن أَنَا إِلَّا﴾ عبد أرسلت بشيراً ونذيراً وما من شأني علم الغيب)'.^١

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره (الكاشف): ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، هذه عقيدة المسلمين بنبيهم محمد أشرف خلق الله أجمعين، لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملكه لغيره، وهذا الاعتقاد بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هو نتيجة حتمية لعقيدة التوحيد، ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾، إن كلمة الغيب لا تدل على معناها فحسب، بل تدل أيضاً على أن الغيب لله وحده، وبالإضافة إلى هذه الدلالة فإن أقرب الناس إلى ربه يعلن للأجيال بأنه أمام الغيب بشر لا فرق بينه وبين غيره من الناس، ثم لا يكتفي بهذا الإعلان بل يستدل على ذلك بالحس والوجدان، وهو أنه لو علم الغيب لعرف عواقب الأمور، فأقدم على ما تكون عاقبته خيراً، وأحجم عما تكون عاقبته شراً، وما أصابه في هذه الحياة ما يسوؤه ويكرهه، وكيلاً يقول

^١ جوامع الجامع ٤٨٨/١

قائل: كيف لا يعلم محمد الغيب وهو الرسول المقرب من الله؟ قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ، إنه رسول الله، ما في ذلك ريب، ولكن مهمة الرسول تنحصر بتبليغ الناس رسالات ربهم، وإنذار من عصي بالعقاب وبشارة من أطاع الله بالشواب، أما علم الغيب والنفع والضرر فبيد الله وحده^١. وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ الناس أنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، فقال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^٢.

يقول الشيخ الطوسي في تفسيره (التبيان) في تفسير الآية: (أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله أن يقول للمكلفين ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ومعناه إني لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم، وإنما يقدر على ذلك الله تعالى. وإنما أقدر على أن أدعوكم إلى الخير وأهديكم إلى طريق الرشاد، فإن قبلتم نلتم الثواب والنفع، وإن رددتموه نالكم العقاب وأليم العذاب، ثم قال أيضاً:

^١ تفسير الكاشف ٤٣١/٣

^٢ سورة الجن آية ٢٠-٢١

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي لا يقدر أن يجير على الله حتى يدفع عنه ما يريد به من العقاب ﴿ وَلَنْ أَجِدَ ﴾ أيضاً أنا ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله ﴿ مُلْتَحِداً ﴾ يعنى ملتجئاً ألاجأ إليه أطلب به السلامة مما يريد الله تعالى فعله من العذاب والألم. وأضافه إلى نفسه، والمراد به أمته، لأنه لا يفعل قبيحاً فيخاف العقاب. والمعنى ليس من دون الله ملتحد أي ملجأ^١.

ويقول الشيخ الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان): (المعنى: ثم خاطب سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمكلفين ﴿ قُلْ إِنِّي لَأَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي لا أقدر على دفع الضرر عنكم، ولا إيصال الخير إليكم، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى، ولكني رسول ليس عليّ إلا البلاغ والدعاء إلى الدين والهداية إلى الرشاد. وهذا اعتراف بالعبودية، وإضافة الحول والقوة إليه تعالى^٢.

^١ تفسير البيان ١٥٧/١٠

^٢ تفسير مجمع البيان ١٥٣/١٠

وقالها آل البيت عن أنفسهم بكل صراحة

وهذا الإمام جعفر الصادق يعلنها صراحة، أمام الناس جميعاً، من شاهده وصحبه، ومن سمع به ولم يره، يقول بكل وضوح:

(والله ما نحن إلا عبيد.. ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمتنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله مالنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون... أشهدكم أي امرؤ ولدني رسول الله وما معي براءة من الله، إن أطعت رحماني وإن عصيت عذابي عذاباً شديداً)^١.

ويقول في دعائه لربه عز وجل: (اللهم لا تجهد بلاءنا، ولا تشمت بنا أعدائنا، فإنك أنت الضار النافع)^٢.

وقد كان حفيده الإمام الرضا يقول في دعائه: (اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، فلا حول ولا قوة إلا بك).

اللهم إني أبرأ إليك من الذين ادعوا لنا ما ليس لنا بحق. اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا. اللهم لك الخلق ومنك الأمر، وإياك نعبد وإياك نستعين. اللهم أنت خالقنا وخالق

^١ بحار الأنوار ٢٨٩/٢٥

^٢ قرب الإسناد ص ٤ حديث رقم (١٠)

آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين. اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلهية إلا لك، فالعن النصارى الذين صغروا عظمتك، والعن المضاهين لقولهم من بريتك.

اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. اللهم من زعم أننا أرباب فنحن إليك منه براء، ومن زعم أن إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن إليك منه براء كبراءة عيسى - عليه السلام - من النصارى. اللهم إنا لم ندعهم إلى ما يزعمون، فلا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما يزعمون^١.

فانظر إلى شهادتي الإمامين الصادق والرضا الواضحتين في الدلالة على أن الله تعالى هو وحده النافع الضار وأن الإمام من آل البيت إنما هو عبد لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وأن من زعم غير ذلك فقد كذب على الأئمة عليهم السلام ونسب إليهم ما لا ينسبونه لأنفسهم.

^١ الاعتقادات لابن بابويه القمي ص ٩٩

التوسل شيء والاستغاثة بالمخلوقين ودعاؤهم شيء آخر

الكثير منا يرتكب الأخطاء الجسيمة لكنه إن جوبه بها بحث عن مبررات أو أدلة ترفع عنه الحرج والعتب!

إنّ منطلقات الكثيرين منا عاطفية، لا تقوم على الدليل والبرهان بقدر ما هي قائمة على عاطفة شخصية تجاه فكرة معينة، نحبهما ونألفهما ونهاجم من يهاجمها!

قد يتصور البعض أنّ انتقادي للاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة من آل البيت أو الصحابة الكرام أو غيرهم من الأولياء والصالحين ربما يعود لجفاء في طبعي أو لنقص في محبتي لأولئك العظام، ولكن هيهات أن يكون ذلك، ونحن نسترخص أرواحنا ودماءنا في سبيل الدفاع عنهم والتقرب إلى الله تعالى بحبهم ومودتهم.

لكنني على يقين من أنّ كل قلب حي يحب الله ورسوله ويجب آل البيت والصحابة الكرام سعي بلا شك أنّ الحب لا يعني التآليه، حب النبي عليه السلام أو آل بيته أو صحابته لا يعني عبادتهم.

إنّ المسلم ليستنكر على النصراني استغاثته بالمسيح عليه السلام أو بمريم العذراء عليها السلام، ودعاه إياهم وتضرعه لهما، ولا يصح في

الأذهان أن يُصنّف هذا المسلم كـ(مبغض للمسيح عليه السلام وأمه)، وما يُقال عن المسيح عليه السلام وأمه يقال في آل البيت وغيرهم من باب أولى.

ومما أتذكره في هذا الشأن موقف حصل بيني وبين صديقة والدتي لكنه في موضوع (التوكل)، حيث ركبت السيارة وهي تقول: (توكلت على الله ومحمد!)، فقلت لها: يا أمه، قولي: (توكلت على الله)، محمد عليه الصلاة والسلام نبينا وحبينا لكنه مخلوق، لا يجوز أن يُتوكل عليه، إنما التوكل على الله تعالى وحده.

فقلت: (توكلنا على الله ثم محمد!) فابتسمت وقلت لها: هل يصح أن أقول: (توكلت على الله والمسيح أو توكلت على الله ثم المسيح) قالت: لا!

فقلت لها: ما الفرق؟

فتحيرت في الإجابة.

فقلت لها: أليس المسيح عليه السلام نبياً؟، قالت: بلى، لكن لا يجوز أن يُقال فيه هذا الكلام، فقلت لها : أمه، محمد عليه الصلاة والسلام نبي، والمسيح عليه السلام نبي، وأنبياء الله تعالى محكي قولهم في القرآن: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا نَنوَكِّلَ
عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَبَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١﴾. ونبي الله تعالى يعقوب عليه السلام قال لأبنائه:
﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ٢

أليست هذه الآيات كافية وواضحة في الدلالة على أنه لا يُتوكل
إلا على الله تعالى؟

وأن الأنبياء عليهم السلام ينفون عن أنفسهم الحول والقوة وأنهم
يصرحون بأن المؤمن يتوكل على الله تعالى لا على غيره؟
كانت هذه الكلمات بحمد الله تعالى أشبهه بالبلسم على قلبها،
فاستجابت بحمد الله فما عادت بعد اليوم تدعو أو تتوكل أو تستغيث
إلا بالله رب العالمين.

١ سورة إبراهيم آية ١٠-١١

٢ سورة يوسف آية ٦٧

إنَّ أولئك الذين يستغيثون بالأَنْبياء والأئمة والصالحين يغالطون
أنفسهم بل يخدعونها حين يزعمون أنَّ صرفهم الدعاء إلى المخلوق
واستغاثتهم به بمثابة التوسل بجاه النبي أو الرجل الصالح!
ولكن أكثر صراحة في الحديث عن هذه المسألة، لنطرح سؤالاً
على الذين يرددون عبارات (أدركني يا محمد) أو (أدركني يا علي) أو
(أدركني يا مهدي) أو (أدركني يا جيلاني)، هل يُعقل أنهم كانوا
يفكرون في الله حين يرددون عباراتهم تلك أم أنهم كانوا يفكرون في
تلك الشخصيات ويرجونها أن تدرّكهم فعلاً؟

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۗ ﴾^١

إنَّ الفرق بين صيغة التوسل وهي (اللهم إني أسألك بجاه محمد
صلى الله عليه وآله وسلم) أو (اللهم اكشف عني كربى بجاه نبيك صلى
الله عليه وآله وسلم) أو (اللهم اغفر لي بحق محمد وآل محمد) وما
أشبهها من صيغ، وبين صيغ أخرى كعبارة: (أدركني يا علي) أو

^١ سورة الأحزاب آية ٤

^٢ التوسل بالذات كقول المرء (اللهم إني أتوسل إليك بمحمد) أو بالجاء كقوله (اللهم إني
أتوسل إليك بجاه محمد) فيه خلاف بين العلماء قديماً وحديثاً، وغاية ما قاله منكروه أنه
بدعة، ولم يقل أحد من العلماء إنه شرك، والأصل في العبادات أنها توقيفية أي أن المسلم =

(الغوث يا رسول الله) أو (اكشف عني كربي يا رسول الله) أو (اشفني يا كاظم) وما أشبهها، فرق واضح وجلي.

ففي الصيغة الأولى خطاب مباشر لله تعالى لا لغيره، فالداعي يدعو ربه قائلاً: (اللهم اكشف عني كذا) أو (اللهم إني أسألك كذا) ثم يلحق بهذا الدعاء توسلاً بجاه محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند الله أو جاه غيره من الأنبياء أو الصالحين.

أما الصيغة الثانية ففيها استغاثة بال مخلوق في أمور لا يقدر عليها إلا رب العباد، وهي الصيغة التي تستحق منا وقفة مع شرعيتها ومدى موافقتها للقرآن والسنة بل ولروايات أئمة آل البيت عليهم السلام.

= يقف فيها عند النص، فلا يتعبد إلا بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام الصحيحة.

لا واسطة بين العبد وربه

إنَّ المتأمل في كتاب الله ليلحظ كثرة الآيات التي تحكي أسئلة طرحها الناس وإجابات إلهية عليها.

فلما سأل الناس عن الأهلة قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ^ط قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^١﴾ .

ولما سألوا عن الإنفاق قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ^ط قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^ط وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^٢﴾ .

ولما سألوا عن القتال في الشهر الحرام قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ^ع وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ^ع

^١ سورة البقرة آية ١٨٩

^٢ سورة البقرة ٢١٥

وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يُقِنُّونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ
دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتِ وَهُوَ
كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾

ولما سألوا عن الخمر والميسر قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾

ولما سألوا عن القيامة قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفُنَا إِلَّا هُوَ نُقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

١ سورة البقرة ٢١٧

٢ سورة البقرة ٢١٩

٣ سورة الأعراف ١٨٧

لكنهم لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى كيف يدعونه وما الطريق إليه، جاءتهم الإجابة دون كلمة (قل) لتعلن الآية أن لا واسطة بين العبد وربّه، وأنّ الله تعالى قريب من عباده يجيبهم إذا دعوه واستجابوا لأمره.

يقول رب العزة والجلال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^١.

يقول أمير المؤمنين علي في وصيته لابنه الإمام الحسن: «واعلم أنّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه»^٢.

وللسيد محمد حسين فضل الله تعليقٌ جميلٌ في تفسيره (من وحي القرآن) يقول فيه: (لا واسطة بين العبد وربّه في خطابه وسؤاله له، وقد نلاحظ في التوجه الإنساني بوحدانية العبادة والاستعانة.. في

^١ سورة البقرة آية ١٨٦

^٢ نهج البلاغة ٤٧/٣ «ومن وصية له لولده الحسن وقد جمع من كل حكمة طرفاً» .

خطاب العبد لربه في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^١
أنّ الإنسان لا يحتاج في حديثه مع الله وفي طلبه منه إلى أية واسطة من
بشر أو غيره، لأنّ الله لا يبتعد عن عبده ولا يضع أي فاصل بينه
وبينه.. إلا ما يضعه العبد من فواصل تبعده عن مواقع رحمته، وتحبس
دعائه عن الصعود إلى درجات القرب من الله.. بل أراد لعباده أن
يدعوه بشكل مباشر ليستجيب لهم، وحدثهم عن قربهم منهم بحيث
يسمع كلامهم حتى لو كان بمثل الهمس أو في مثل وسوسة الصدور،
وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^٢
وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^٣.

^١ تفسير من وحي القرآن ٦٥/٢٥-٦٦

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

يقص لنا القرآن أخبار الأمم السابقة ليس على سبيل التسلية بل للعبرة والاعتاظ والنهي عن التشبه بأفعال أهل الضلال لئلا ننتهي إلى ما انتهوا إليه.

لقد قصَّ الله تعالى على أهل الإيمان خبر المشركين الذي أرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لينير بصائرهم ويتشلهم من الشرك إلى الإيمان.

فأخبر أنّ أولئك المشركين كانوا مؤمنين بأنّ الله تعالى هو خالق السموات والأرض، الذي يخرج الحي من الميت ويدبر الأمر، فقال عز من قائل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾^١.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْمُرُونَ ﴾

﴿ ٨٤ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ
﴿ ٨٦ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿ ٨٧ ﴾ قُلْ

^١ سورة الزخرف آية ٩

مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

وقال أيضاً: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

إذن أين المشكلة!؟

^١ سورة المؤمنون آية ٨٤-٨٩

^٢ سورة العنكبوت آية ٦١-٦٣

^٣ سورة يونس آية ٣١

لقد كان هؤلاء مقرين بأنّ الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت لكنهم كانوا يصرفون بعض أنواع العبادات لغيره كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^١.

كانوا يقولون: إنّ الله تعالى عظيم ونحن مذنبون، ولا بد لنا من وسطاء بيننا وبين الله، فاتخذوا وسائط بينهم وبين الله تعالى صرفوا لهم الدعاء والاستغاثة والقرابين والندور.

لو جاز لك أن تسألهم: أتؤمنون بأنّ أصنامكم هذه آلهة بحق أم أنها وسائط بينكم وبين الله تعالى، وأنها آلهة مملوكة لرب العالمين؟ فإنهم سيجيبونك بقولهم: بل مملوكة لرب العالمين، وإنما صرفنا لها دعاءنا واستغاثتنا وذبائحنا وندورنا لتقربنا إلى الله تعالى!

يقول الله تعالى حاكياً قولهم هذا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^٢.

^١ سورة يونس آية ١٨

^٢ سورة الزمر آية ٣

يقول ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) عن مشركي مكة:
(كانوا في عبادة الأصنام مختلفين، فمنهم من يجعلها مشاركة للبارئ
تعالى، ويطلق عليها لفظة الشريك، ومن ذلك قولهم: في التلبية (لبيك
اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك)،
ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى
المخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
رُفُوعًا﴾.

إنَّ الله تعالى قد بين لنا في كتابه التناقض الشديد الذي عاشه
المشركون حين تداهمهم الكرب والملهمات فيلجأون بفطرتهم التي
فطرهم الله عليها إلى الله وحده دون غيره، مخلصين له الدعاء
والاستغاثة، حتى إذا ما كشف الكرب عنهم عادوا إلى شركهم،
وجعلوا لله أنداداً وهم يعلمون أنه سبحانه النافع الضار!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ، مُنِيبًا﴾ هذا هو
دعاء الفطرة، ثم يقول: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾^١.

^١ سورة الزمر آية ٨

وقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ ﴾^١.

هذا هو دعاء الفطرة، ثم يقول: ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾^٢.

وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ
أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾^٣.

وقال سبحانه: ﴿ وَطَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ لِيْنَ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّا مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^٤.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ
فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾^٥.

^١ سورة الإسراء آية ٦٧

^٢ سورة الإسراء آية ٦٧

^٣ سورة الأنعام آية ٤٠

^٤ سورة يونس آية ٢٢

^٥ سورة العنكبوت آية ٦٥

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالتُّظَلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَحَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾^١.

وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجِنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^٢.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾^٣.

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾^٤.

إنَّ (لا إله إلا الله) لا تعني (لا خالق إلا الله) فحسب، فهذه يؤمن بها حتى الذين يجاربون الإسلام!

^١ سورة لقمان آية ٣٢

^٢ سورة الأنعام آية ٦٣

^٣ سورة يونس آية ١٢

^٤ سورة الروم آية ٣٣

إنَّ لها أبعاداً لم يألفها البشر إلا في مناهج الرسل التي دأب البشر على تحريفها وتشويهها بما ينسجم مع تصوراتهم المادية المحدودة، فاخترعوا الوسطاء بين الله وبين خلقه !
وما قصة قوم نوح إلا مثلاً واضحاً عن كيفية تحول فئة من أولياء الله ك (وَدّ) و (سواع) و (يعوث) و (يعوق) و (نسر) إلى آلهة تعبد وترتجى من دونه مع تعاقب الأجيال.

وقد روى ابن بابويه القمي في كتابه (علل الشرائع) عن الإمام جعفر الصادق، في قوله الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَتَكَ وَلَا نَدْرَأُ وَدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^١، قال: كانوا يعبدون الله عز وجل فماتوا، فضجَّ قومهم وشق ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم: أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنتظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله فأعد لهم اصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله عز وجل وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عز وجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا: إنَّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم

^١ سورة نوح آية «٢٣».

من دون الله عز وجل فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْرِيْنَ وِدَّآ وَلَا سُوَاعَا﴾ الآية^١.

إنَّ عبارة (لا إله إلا الله) أسهل ما يمكن أن تكون على اللسان لكن دلالتها أكبر مما يتصور البعض اليوم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ﴾ ولم يقل: (فقل) (لا إله إلا الله)، لأنَّ المطلوب هو الإقرار بما تتضمنه (شهادة أن لا إله إلا الله) باطنًا وظاهرًا.

ف(لا إله إلا الله) تعني (لا معبود في الكون يستحق أن يعبد إلا الله) (لا رازق إلا الله)، (لا مدبر إلا الله)..
لا نخشى إلا الله، لا نتوكل إلا على الله، لا نرجو إلا الله، لا نخاف إلا الله ..

لا نلجأ إلا إليه، ولا نتضرع إلا إليه ..

لا نرفع أكفنا بالدعاء إلا إليه ...

لا نرفع أيدينا لغيره، ولا لأنبيائه ولا لأوليائه !

^١ علل الشرائع لابن بابويه القمي (الصدوق) ٣/١ (باب: العلة التي من أجلها عبادت الأصنام)

لقد أرسل الله عز وجل الرسل ليطاعوا .. لا ليستغاث بهم!

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^١.

أرسلهم الله ليكونوا واسطة التبليغ عنه، لا ليكونوا واسطة التبليغ

إليه !

فهم رسل الله إلينا، وليسوا رسلنا إلى الله !

يبلغوننا ما يريد الله منا، ولا يبلغون الله ما نريده منه!

^١ سورة النساء آية ٦٤

تشابهت الصور واختلفت المسميات

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^١

في هذه الآية بيان أنّ المشركين قديماً (عربهم وعجمهم) لم يتخذوا جميعاً (الأصنام) كوسائط بينهم وبين الله تعالى بل كان منهم من اتخذ وسائط من البشر، كحال النصارى الذين اتخذوا (مريم عليها السلام) وسيطة بينهم وبين الله تعالى، يدعونها ويستغيثون بها، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم بل ويقرون بألسنتهم وفي كتبهم بأنّ (مريم عليها السلام) ليست إلهاً يُعبد.

تشابهت صور العبادة واختلفت المسميات والشخصيات التي تُعبد .

ولنقدم إلى المقصود من الكلام لنقول: إنّ بعضاً من أولئك الذين يتخذون بينهم وبين الله وسائط يتوكلون عليهم ويستغيثون بهم أو يندرون لهم ويذبحون لهم، حينما تقابلهم بالآيات والأحاديث التي

^١ سورة الأعراف آية ١٩٤

تدين فعلهم هذا، ربما ينتفض في وجهك أحدهم قائلاً: (أُشِبَّهَ النَّبِيُّ
أَوْ الْإِمَامُ أَوْ الْوَلِيُّ بِالْأَصْنَامِ؟!)

لا يمكن لمسلم أن يشبه نبياً أو إماماً من أئمة المسلمين أو صالحاً
من صالحهم بالأصنام، لأنه يُدْرِكُ لا محالة أنَّ هؤلاء العظام لا
يرتضون لأنفسهم أو لغيرهم أن يُعْبَدُوا من دون الله تعالى، كما قال الله
تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ
يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾^١

لكن التشابه حصل من حيث الفعل الذي يقوم به الداعي، فأهل
مكة كانوا يدعون الأصنام ويقدمون لها النذور والقرايين لتقربهم
بدورها إلى الله تعالى، وهؤلاء الذين يتوجهون للأنبياء والأئمة
والصالحين بالدعاء والاستغاثة والنذور وغيرها يفعلون ذلك
ليقربوهم إلى الله تعالى!

^١ سورة آل عمران آية ٧٩-٨٠

ما الفرق الحقيقي بين رجل يستغيث بمريم عليها السلام قائلاً: (يا
عذراء .. اقض لي حاجتي) وبين آخر يستغيث بفاطمة عليها السلام
قائلاً: (يا زهراء ... اقض لي حاجتي)؟ ﴿شَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^١

^١ سورة البقرة آية ١١٨

آل البيت يعلمون محبيهم التوسل المشروع

حث الله تعالى المؤمنين على تقواه والتقرب إليه بالطاعات فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١.

يقول الطوسي في تفسير الآية: (خاطب الله في هذه الآية المؤمنين

وأمرهم أن يتقوه، ومعناه أن يتقوا معاصيه ويجتنبوها، وابتغوا إليه

الوسيلة معناه يطلبون إليه الوسيلة وهي (القربة)^٢.

وفي تفسير شبر: (أي ما تتوسلون به إلى ثوابه من الطاعة)^٣ وفي

تفسيره (الجوهر الثمين) قال: (ما تتوسلون به إلى ثوابه وجنانه

ورضوانه من الطاعة)^٤.

ويقول فخر الدين الطريحي في (تفسير غريب القرآن):

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي القربة إلى الله عز وجل، والوسيلة:
القربة)^٥.

^١ سورة المائدة آية ٣٥

^٢ التبيان ٥٠٩/٣

^٣ تفسير شبر ١١٢/١

^٤ تفسير الجوهر الثمين ١٧٠/٢

^٥ تفسير غريب القرآن ص ٤٨٤

وقد بيّن آل البيت عليهم السلام أنّ التوسل إنّما يكون بالأعمال
الصالحة لا باتخاذهم وسائط بين الله وبين عباده.
فهذا الإمام علي بن أبي طالب يقول في (نهج البلاغة) واصفاً لنا
آداب التوسل والدعاء:

(إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به
وبرسوله والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص إنها
الفطرة، وإقامة الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة،
وصوم شهر رمضان فإنه جُنة من العقاب، وحج البيت واعتباره فإنهما
ينفيان الفقر ويرحضان الذنب، وصلّة الرحم فإنها مثرة في المال
ومنسة في الأجل، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية
فإنها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان)^١.
ويقول الإمام السجاد الذي سطر أخلص وأصفى تعابير التوسل
والاستغاثة في أدعيته، يقول في الدعاء الذي رواه عنه أبو حمزة الثمالي:

^١ نهج البلاغة ص ١٦٣ رقم (١١٠) (ومن خطبة له عليه السلام في أركان الدين).

(.. و الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي، وأخلو به حيث شئت لسري بغير شفيع، فيقضي لي حاجتي.. الحمد لله الذي أدعوه ولا أدعو غيره، ولو دعوت غيره لم يستجب لي دعائي ..)!!^١
ويقول: (الحمد لله الذي لا أرجو غيره، ولو رجوت غيره لأخلف رجائي).

ويقول في مناجاة المطيعين: (ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت)^٢.
ويقول أيضاً: (أنت المدعو للمهمات وأنت المفزع في المهمات)^٣.
ويقول أيضاً: (لا يشركك أحد في رجائي ولا يتفوق أحد معك في دعائي ولا ينظمه وإياك ندائي)^٤.

ويقول الإمام جعفر الصادق: (عجبت لمن اغتم، كيف لا يفزع إلى قوله عز وجل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^٥
فإني سمعت الله بعقبها يقول:

^١ الصحيفة السجادية ص ٢١٤

^٢ نفس المصدر ص ٤١١

^٣ نفس المصدر ص ٦٧

^٤ نفس المصدر ص ١٤٤

﴿وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُحَيِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١

وعجبت لمن مُكر به، كيف لا يفرع إلى قوله تعالى:

﴿وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^٢

فإني سمعت الله يعقبها يقول:

﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾^٣

وقد كان من دعائه لربه عز وجل:

(يا من لا تحجبه سماء عن سماء، ولا أرض عن أرض، ولا جنب
عن قلب، ولا ستر عن كين، ولا جبل عما في أصله، ولا بحر عما في
قعره، يا من لا تشتهه عليه الأصوات، ولا تغلبه كثرة الحاجات، ولا
يرمه إلحاح الملحين)^٤

ومثل هذه الأمور لا تكون إلا لله عز وجل، فلو أن المخلوقات
جميعاً نادت ربها واستغاثت به ما اشتبهت ولا اختلطت على رب العباد

^١ سورة الأنبياء آية ٨٣-٨٤

^٢ سورة غافر آية ٤٤

^٣ الخصال ص ٢١٨

^٤ قرب الإسناد ص ٦ حديث رقم (١٨)

أصواتهم، ولا أثقلته كثرة الحاجات ولا إلحاح الملحين، فهل يجد
أولئك الذين يدعون الأئمة ويستغيثون بهم عندهم هذه الأمور؟
هل كان الإمام علي أو الإمام الرضا يسمعون في حياتهم استغاثات
الملايين من الناس (في الهند وباكستان والعراق والبحرين ولبنان
وإيران والكويت وغيرها) حتى يسمعوهم بعد موتهم؟!!

آل البيت عليهم السلام يستغيثون بالله فبمن تستغيث أنت؟

روى ابن بابويه القمي عن سليمان بن مهران عن الإمام الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ لله عز وجل تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة) ثم ذكر أسماء كثيرة منها (الغيث)^١.

يقول الشيخ ابن فهد الحلبي في تفسير اسم (الغيث) في حق الله تعالى: (معناه المغيث سمي بالمصدر توسعاً لكثرة إغاثة الملهوفين وإجابته دعاء المضطرين)^٢.

فيا عجباً.. كيف يُدعى المربوب المحتاج ويُتناسى الرب الذي خلقه فسواه فعدله؟!!

كل مسلم يُدرك أنَّ الإمام مفتقر إلى خالقه، خاضع له، محتاج إليه، يستغيث به عند الحاجة، ويرجوه في ليله ونهاره، فكيف يتوجه العبد إليه بالدعاء والاستغاثة ويترك الوهاب السامع لكل شكوى؟!!

^١ كتاب التوحيد ص ١٩٤ والخصال ص ٥٩٣

^٢ عدة الداعي ص ٣٠٧

لقد ضرب الإمام الصادق مثلاً رائعاً لكل مسلم، مؤكداً بمثاله هذا أنه (لا يُستغاث إلا بالله تعالى) وأنّ المخلوق ضعيف مربوب خاضع لسلطان هذا الرب العظيم، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

روى ابن بابويه القمي عن الإمام الحسن العسكري في قول الله عز وجل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال: الله هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من هو دونه، وتقطع الأسباب من جميع ما سواه، يقول: (بسم الله) أي أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي، وهو ما قال رجل للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله دلني على (الله) ما هو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجى، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث).^١

^١ كتاب التوحيد ص ٢٣٠

وفي رواية أخرى: (الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كل من سواه وذلك أنّ كل مترئس في هذه الدنيا ومتعظم فيها وإن عظم غناؤه وطغيانه وكثرت حوائج من دونه إليه فإنهم سيحتاجون حوائج لا يقدر عليها هذا المتعظم، وكذلك هذا المتعظم يحتاج حوائج لا يقدر عليها، فينقطع إلى الله عند ضرورته وفاقته حتى إذا كفى همه عاد إلى شركه، أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ، فقال الله عز وجل لعباده: أيها الفقراء إلى رحمتي إني قد ألزمتكم الحاجة إليّ في كل حال، وذلة العبودية في كل وقت، فإيّ فافزعوا في كل أمر تأخذون فيه وترجون تمامه وبلوغ غايته، فإني إن أردت أن أعطيكم لم يقدر غيري على منعكم وإن أردت أن أمنعكم لم يقدر غيري على إعطائكم، فأنا أحق من سئل، وأولى من تضرع إليه، فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير أو عظيم (بسم الله الرحمن الرحيم) أي أستعين على هذا

^١ سورة الأنعام آية «٤٠-٤١»

الأمر بالله الذي لا يحق العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، المجيب إذا
دعي)¹.

فتأمل كلام الإمامين الصادق والعسكري لتعلم كم يبتعد عن
تعاليم الأئمة وتوحيدهم من يتعلق قلبه بالمخلوقين عند الشدائد
فيستغيث بهم حيث لا منجي.

فقد بين الإمام الصادق للرجل أنّ المخلص من المحن والشدائد
هو الله تعالى قائلاً: (فهل تعلق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر
على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم، قال الصادق: فذلك الشيء
هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا
مغيث)، ولم يقل له: إن أصابتك مصيبة فاسأل الزهراء أو اسألني
أقضي لك حاجتك.

وتأمل قوله للرجل: (فهل تعلق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء
قادر على أن يخلصك من ورطتك؟) لتعلم أنّ القلب ليس بمأمن من
الشرك إن لم يُوطّن على التعلق بالله تعالى، فأين الذين تتعلق قلوبهم
بالمخلوقين (سواء أكانوا أنبياء أو أئمة أو غيرهم من الصالحين)
فيذكرونهم عند الشدائد والمحن من الموحد العارف لربه الذي لا

¹ التوحيد لابن بابويه القمي ص ٢٣١

يتعلق قلبه عند المحن إلا بربه، فيناديه ويستغيث به متذلاً له
مستشعراً خضوعه لهذا الرب ومستشعراً قدرة الله تعالى على كشف
الضر عنه؟

ولخطورة هذه المسألة كان موقف أهل البيت عليهم السلام تجاهها
واضحاً كل الوضوح، لا يختلف عن ذلك الوضوح الذي لمسناه في
مسألة (دعاء غير الله).

فهذا الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) يدعو الله تعالى وهو في
غاية التذلل له قائلاً: (مولاي مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل
يرحم العبد إلا المولى؟! مولاي مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل
يرحم الذليل إلا العزيز؟! مولاي مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق،
وهل يرحم المخلوق إلا الخالق؟! مولاي مولاي أنت المعطي وأنا
السائل، وهل يرحم السائل إلا المعطي؟! مولاي مولاي أنت المغيث
وأنا المستغيث، وهل يرحم المستغيث إلا المغيث؟!)

ليعلن بذلك للناس أجمعين، أن الله تعالى هو المغيث وأن الإمام لا
يملك لنفسه إلا أن يكون مستغيثاً بالله راجياً منه الرحمة والعفو
والعطاء والمغفرة.

¹ الصحيفة السجادية (جمع الأبطحي) ص ٣٨٦ (دعاؤه عليه السلام في التذلل)

وهذا الإمام محمد الباقر يخبر عن جدته فاطمة الزهراء فيقول: (إنَّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستين يوماً ثم مرضت فاشتدت عليها فكان من دعائها في شكواها: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأغثني، اللهم زحزحني عن النار، وأدخلني الجنة، وألحقني بأبي محمد (صلى الله عليه وآله)).^١

فانظر إلى فاطمة الزهراء (سيدة نساء العالمين) بمن تستغيث. رغم حبها لأبيها محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورجائها من الله أن يُلحقها به، لم تستغث برسول الله بل بربها ورب أبيها عليه الصلاة والسلام.

وهذا الإمام جعفر الصادق يعلن افتقاره إلى ربه عز وجل فيستغيث به ويرجوه قائلاً: (اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجمل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل المذنب الذليل^٢، وأدعوك دعاء الخائف

^١ بحار الأنوار للمجلسي ٢١٧/٤٣

^٢ هكذا في المصدر، والصواب: وأبتهل ابتهاج المذنب الذليل.

الضرير، دعاء من خضعت لك رقبتك، وفاضت لك عبرته، وذل لك خيفته ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيماً، وكن لي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين، والحمد لله رب العالمين^١.

ويعلم أتباعه (صلاة الحاجة) فيقول: (إذا مضى ثلث الليل فقم وصل ركعتين بسورة الملك وتنزيل السجدة ثم ادعه وقل: (يا رب قد نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحي القيوم لا تأخذك سنة ولا نوم، لن يوارى عنك ليل داج ولا سماء ذات أبراج ولا أرض ذات مهاد ولا بحر لحي ولا ظلمات بعضها فوق بعض، يا صريح الأبرار وغيث المستغيثين برحمتك أستغيث)^٢.

فانظر إلى الإمام بمن يستغيث؟ ويدعو إلى الاستغاثة بمن؟ إنه يستغيث بربه عز وجل، ويدعو أتباعه إلى الاستغاثة بالله تعالى عند الحاجة لا للاستغاثة بالإمام نفسه!

وقد أخبر الإمام الصادق أن الاستغاثة بالله تعالى هي سنة الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

^١ بحار الأنوار للمجلسي ٢٢٥/٩١

^٢ مكارم الأخلاق للطبرسي ص ٣٣٧

يقول الإمام الصادق: (ثلاث تناسخها الأنبياء من آدم عليه السلام حتى وصلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أصبح يقول: (اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي، و يقيناً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضني بما قسمت لي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً و صلى الله على محمد وآله)^١.

فإذا كان الأنبياء يستغيثون بالله تعالى وآل البيت عليهم السلام يستغيثون بالله تعالى، فبمن تستغيث أنت؟

^١ الكافي للكليبي ٥٢٤/٢ (كتاب الدعاء - باب القول عند الإصباح والإمساء)

لأبي علة أغرق الله تعالى فرعون ؟

روى ابن بابويه القمي عن إبراهيم بن محمد أنه قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا: (لأبي علة أغرق الله عز وجل فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده ؟ قال: إنه آمن عند رؤية البأس وهو غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ وقال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾، وهكذا فرعون لما أدركه الغرق قال:

﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فقيل له: ﴿ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ فاليوم نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ... ولعلة أخرى أغرق الله عز وجل فرعون وهي أنه استغاث بموسى لما أدركه الغرق

ولم يستغث بالله، فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى ما أغثت
فرعون لأنك لم تخلقه، ولو استغاث بي لأغثته)¹.

فتأمل كلام الإمام الرضا وهو يبين العلة الثانية التي من أجلها
أغرق الله تعالى فرعون ولم يقبل توبته.

لقد استغاث فرعون بموسى - عليه السلام - لما أدركه الغرق ولم
يستغث بالله تعالى، استغاث بنبي من أولي العزم من الرسل ولم يستغث
بصنم لكن الله تعالى لم يتقبل ذلك منه، بل أوحى لنيه موسى - عليه
السلام - « يا موسى، ما أغثت فرعون لأنك لم تخلقه، ولو استغاث بي
لأغثته».

فأين الذين يستغيثون بالأنبياء والأئمة والصالحين من هذه الرواية
العظيمة!؟

¹ علل الشرائع ٥٩/١

الاستغاثة بالزهراء والأئمة أم بخالقهم؟

حينما احتاج المسلمون إلى العون في غزوة (بدر) أخبر رب العالمين عن دعائهم قائلاً :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾^١ مع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حي بين أظهرهم وكذا الإمام علي وكذا السيدة فاطمة في المدينة، لكنهم مع هذا كله وجهوا نداءهم لله وحده، لأنه لا يملك النفع والضرر إلا الله، فمحمد عليه الصلاة والسلام بشر مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً فكيف يملك لغيره النفع والضرر؟!

قال تعالى مخبراً عن رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم موجهاً الكلام للناس مسلمهم وكافرهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^٢ ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^٣ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾^٤،

^١ سورة الأنفال آية ٩

^٢ سورة الجن آية ٢١

فالرسول بشر مبلّغ عن الله، كرامته وعظمته تتمثلان في اصطفاء الله له من دون سائر البشر واختياره للنبوّة وفي أخلاقه وسلوكه وشخصيته التي تمثل الكمال البشري فيها في حب كل أوجهها ولكنه مع كل هذه العظمة لا يملك لنفسه ولا لغيره النفع والضرر إلا بمقدار ما يستطيع البشر (بنص القرآن الكريم)، فكيف بمن هم دونه منزلة عند الله ومن هم دونه فضلاً وعلماً من الأئمة أو الأولياء والصالحين؟

هذا مثال لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وخذ هذا المثال الآخر لإبراهيم عليه السلام خليل رب العالمين الذي قال الله عنه في القرآن المجيد: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝١﴾

وذاك المسيح عليه السلام، النبي العظيم الذي أُجريت على يديه المعجزات العظيمة من خلق بإذن الله وإحياء للموتى بإذن الله يقول

^١ سورة المتحنة آية ٤

عنه رب العالمين حينما زعم النصارى أنه يملك الحساب يوم القيامة وأنه قد فُوض له ذلك من رب العالمين، وأنه ابن له مع اعترافهم بأن الله (الآب) هو أعظم من ذلك الابن المتجسد (المسيح) كما هو منصوص عليه في عقيدتهم، ماذا أجابهم رب العالمين؟

قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ بَيَّنُّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^١

فبيّن الله عز وجل أن المسيح بشر يأكل الطعام ويحتاج إليه ويحتاج لمن خلقه، ويصيبه الضر إذا افتقده، فكيف تتوجهون بالدعاء والاستغاثة والندور والقرايين والذبائح وغيرها من أصناف العبادات لمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، وتتجاهلون الإله الحق السميع العليم الذي يسمع سركم ونجواكم ويعلم ما تخفيه صدوركم؟! ولذا جاء قول الله عز وجل:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ^٤ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ

^١ سورة المائدة آية ٧٥-٧٦

أَبْنِ مَرِيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ^١ اللّيبين أنّ المسيح عليه السلام وأمه مع جلالته قدرهما وعظم
منزلتهما إن أراد الله عز وجل أن يهلكهما فلا راد له ولا دافع لأمره، فإن
كان المسيح وأمه لا يملكان دفع الضر عن نفسيهما فكيف يُتوجه لهم
بالدعاء والعبادة؟!

فالأنبيا والأئمة والصالحون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً،
فمن توجه لهم بالدعاء أو استغاث بهم فيما لا يقدر عليه بشر أو نذر
لهم وقدم قرابينه لهم أو ذبح لهم فقد أشرك بالله تعالى.

ولذا رأينا التوجيه القرآني الرائع القائل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾^٢ ولم يقل الله عز وجل: (فقل لا إله إلا الله) لأن
كلمة (لا إله إلا الله) أسهل ما تكون على اللسان، لكن فهم معنى هذه
العبرة وتجسيدها على أرض الواقع وتحقيق معانيها هو المراد وهو
المطلوب.

^١ سورة المائدة آية ١٧

^٢ سورة محمد آية ١٩

كان من السهل على كفار مكة أن يقولوا: (لا إله إلا الله) لكنهم أدركوا أن المطلوب منهم أكثر من مجرد اللفظ، فهم يؤمنون بأن الله هو الخالق البارئ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^١، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^٢ لكن كانوا يقيسون الله عز وجل بملوك زمانهم وغير زمانهم الذين لا يدخل عليهم أحد إلا بوساطة مقرب عنده! قالوا: الله عز وجل أعظم وأجل من أن نطلب منه كذا وكذا، الله عز وجل عظيم ونحن مذنبون، كيف لنا أن نطلب منه مباشرة، لا بد من وسطاء فيشفعوا لنا، أخبر الله عز وجل عن دعواهم تلك بقوله حكاية عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^٣.

أي ما كنا نتوجه لهم بالعبادة (دعاء، نذور، قرابين، ذبائح) إلا ليقربونا إلى الله، لا ظناً بهم أنهم من خلقنا ورزقنا وينصرنا في الشدائد.

^١ سورة الزخرف آية ٨٧

^٢ سورة الزمر آية ٣٨

^٣ سورة الزمر آية ٣

ولكن هل تقبل الله منهم هذا الإيمان؟ وهل نفعهم إقرارهم بهذا
الإله الواحد مع إشراكهم معه غيره في الدعاء والعبادة؟!!

قال الله تعالى فيهم وفي من يجذو حذوهم: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾^١، ولذلك أرسل الله عز وجل لهم محمداً عليه
الصلاة والسلام، وشهد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
بالنار حين قاتلوه دفاعاً عن ذاك الشرك، فأقرارهم بالله لم ينفعهم لما
وجهوا العبادة لغيره.

وليس فلان وفلان من الناس بأكرم عند الله من عشيرة رسول الله
حتى يُستثنى وتُكتب له براءة من الشرك مع مزاولته للشرك أو اعتقاده
له، فالدين لا محاباة فيه، وأبو لهب هو عم النبي عليه الصلاة والسلام
ومع ذلك لما أشرك بالله لم تنفعه تلك القرابة.

وليس البشر اليوم بأكرم عند الله من قوم نوح عليه السلام لما
أشركوا بالله أهلكتهم جميعاً ونجا منهم أهل الإيمان وهم قلة،
فالاستشهاد بكثرة من يدعو غير الله ويستغيث بغير الله رغم انتسابه
للإسلام اسماً لن يغني من الحق شيئاً ولن يجعل من الشرك توحيداً،

^١ سورة يوسف آية ١٠٦

فكم ذم الله عز وجل الكثرة حين تتبنى الضلال فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو

فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^١

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٢

ويقول: ﴿لَقَدْ حَسَنَّاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِحُونَ﴾^٣

ويقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

والآيات في هذا كثيرة جداً.

وانتساب المرء للإسلام شرف له ورفعته، لكنه حينما يشرك بالله ويتخذ له شركاء يدعوهم في الشدائد أو في الرخاء فإن الله غني عنه وعن عبادته وعن إسلامه المزعوم.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾^٤

ويقول: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

جَمِيدٌ﴾^٥

^١ سورة يونس آية ٦٠

^٢ سورة الشعراء آية ٨ و٦٧ و١٠٣ و١٢١ و١٣٩ و١٥٨ و١٧٤ و١٩٠

^٣ سورة الزخرف آية ٧٨

^٤ سورة الزمر آية ٧

^٥ سورة ابراهيم آية ٨

فليس لأحد أن يتمسك بالعنوان ويترك المعاني، يتمسك بعبارة (لا إله إلا الله) وهو يطعن في معنى هذه الشهادة في كل حركاته وسكناته، يشرك بالله الليل والنهار، ويتصور أن شهادة (لا إله إلا الله) اللفظية فقط تنجيه من حر النار.

لقد اقتنيت ذات مرة كتاب (أكسير الدعوات)^١ وهو كتاب أدعية واسع الانتشار بين العامة والبسطاء وشدني في هذا الكتاب عنوان (استغاثة إلى فاطمة عليها السلام) يقول فيه المؤلف: (في البلد الأمين تصلي ركعتين فإذا سلّمت فكبّر الله تعالى ثلاثاً، وسبّح تسبيح الزهراء عليها السلام واسجد وقل مائة مرة (يا مولاتي يا فاطمة أغيشيني) ثم ضع خدك الأيمن على الأرض وقل كذلك، ثم عد إلى السجود وقل كذلك، ثم ضع خدك الأيسر على الأرض وقل كذلك، ثم عد إلى السجود وقل كذلك مائة وعشر مرات، واذكر حاجتك تُقضى بإذن الله)!

وتذكرت وكُلي حزن على هذا الواقع المرير الذي نعيشه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ

^١ أكسير الدعوات ص ٤١٠

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾^١.

فرق بين من يستغيث بمخلوق لا يملك لنفسه الحياة ولا الممات
ولا الرزق حتى يهب ذلك لغيره، وبين من يستغيث بالذي يجب
المضطر إذا دعاه ويكشف السوء!

^١ أكسير الدعوات ص ٤١٠

أليس الله بكاف عبده؟

إنَّ الله عز وجل هو الصمد الذي تلتجئ إليه المخلوقات في الرخاء والشدائد... حقيقة فطر الله الناس عليها... وآمن بها المسلم العارف بدينه.

روى الكليني في الكافي عن داود بن القاسم الجعفري قال: (قلت لأبي جعفر الثاني: جعلت فداك ما الصمد؟، قال: السيد المصمود إليه في القليل والكثير)^١، والمصمود إليه أي المقصود.

علّق الكليني على ذلك فقال: (والله عز وجل هو السيد الصمد الذي جميع الخلق من الجن والإنس إليه يصمدون في الحوائج وإليه يلجأون عند الشدائد ومنه يرجون الرخاء ودوام النعماء ليدفع عنهم الشدائد)^٢.

روي عن الإمام جعفر الصادق قوله: (إذا خفت أمراً فقل: اللهم إنك لا يكفي منك أحد، وأنت تكفي من كل أحد من خلقك. فاكفني

^١ الكافي ١/١٢٣ (كتاب التوحيد - باب تأويل الصمد - حديث رقم (١))

^٢ الكافي ١/١٢٤

كذا وكذا...»، وفي رواية، (يا كافياً من كل شيء ولا يكفي منك شيء)^١

فأين هذا من الذين يرددون: (يا محمد يا علي يا علي يا محمد، اكفياني فإنكما كافياني، يا محمد يا علي يا علي يا محمد، انصراني فإنكما ناصراني، يا محمد يا علي يا علي يا محمد، احفظاني فإنكما حافظاني، يا مولاي، يا صاحب الزمان، الغوث الغوث، أدركني أدركني، الأمان الأمان)^٢؟

والله تعالى يسألهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^٣؟!
ألا يكفي هؤلاء أن يكون ربهم هو الملجأ لهم والمستغاث به، الذي يطلبون منه النصر والتثبيت والحفظ والأمان؟ أما يكفيهم رب العالمين حتى يشركوا معه غيره؟!!

يقول الله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

^١ الكافي ٤٠٤/٢ - (كتاب الدعاء - باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف)

^٢ انظر مثلاً: وسائل الشيعة ١٨٥/٨ (باب استحباب التطوع بصلاة الأئمة).

^٣ سورة الزمر آية «٣٦» .

كَشَفْتُ ضُرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِكَتٌ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ
اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾^١

وإنما يتوجه المسلم بنداؤه ودعائه لله دون غيره طالباً منه سبحانه
وحده قضاء الحوائج وتفريج الكرب، لأنه يدرك أن الاستعانة
والاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله إنما هو صرف عبادة لغير الله تعالى.
لقد وقفت على روايات مكذوبة تحكي حقيقة المأساة، مأساة
التوجه لبشر لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً إن أراد الله بهم
ضراً، ولا يملكون لأنفسهم حياة ولا نشوراً.

فقد خصصت تلك الروايات لكل إمام وظيفة في النفع والضرر
فقالت: (أما علي بن الحسين فللنجاة من السلاطين ونفث الشياطين،
وأما محمد بن علي وجعفر بن محمد فلاخرة وما تبتغيه من طاعة الله
عز وجل، وأما موسى بن جعفر فالتمس به العافية من الله عز وجل،
وأما علي بن موسى فاطلب به السلامة في البراري والبحار، وأما محمد
بن علي فاستنزل به الرزق من الله تعالى، وأما علي بن محمد فللنوافل
وبر الإخوان وما تبتغيه من طاعة الله عز وجل، وأما الحسن بن علي

^١ سورة الزمر آية ٣٨

فلآخرة، وأما صاحب الزمان فإذا بلغ منك السيف الذبح فاستعن به فإنه يعينك^١ ثم ألحق المجلسي صاحب بحار الأنوار بهذه الرواية - دعاءً يتضمن الاستغاثة بالأئمة على هذا النحو السالف الذكر من قبيل الشرح لهذا النص^٢.

وعلى هذا المنوال سارت الكثير من الأدعية، فصار الأئمة هم المستغاث بهم والمرتجى، فيتوجه زائرهم بالدعاء واصفاً إياهم بأنهم: (...أركان البلاد، وقضاة الأحكام، وأبواب الإيمان ... منائح العطاء، بكم إنفاذه محتوماً مقروناً، فما شيء منه إلا وأنتم السبب وإليه السبيل... فلا نجاة ولا مفرع إلا أنتم ولا مذهب عنكم يا أعين الله الناظرة)^٣.

ينادي أحدهم (يا حسين) و (يا علي) و (يا مهدي) وربما (يا عباس)... يستغيث بهم لقضاء حوائجه أو لرفع ثقل يعجز عن رفعه.

^١ بحار الأنوار ٣٣/٩٤

^٢ المصدر السابق

^٣ بحار الأنوار آية ٣٧/٩٤

فترى هذا يردد (يا علي مدد)، وهذا ينادي (يا حسين أغثني) وذاك
يعكف عند مرقد الإمام الرضا يبكي عند قبره ويتمسح بالقبر ويقبله
أو يدعو صاحبه وينذر له !!

وذاك يعتقد أنّ الإمام الكاظم هو باب الحوائج! فيتوجه له
بالدعاء من دون الحي الذي لا يموت!

إنّ هذه الممارسات لتدعوني للتساؤل: كيف لمسلم أن يردد سبع
عشرة مرة في صلواته اليومية قول الله عز وجل في سورة الفاتحة:
(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ثم إذا ما أراد أن يستعين بأحد في
قضاء حوائجه استعان بمخلوق مثله دون أدنى اكتراث بتلك الآية
التي حفظها منذ الصغر ورددتها لسانه!؟

يرى أنّ حوائجه تنقضي إذا ما كرر عبارة (ناد علياً مظهر العجائب
تجده عوناً لك في النوائب. كل هم وغم سينجلي بولايتك يا علي يا علي
يا علي) ثم يلحقها بقوله: (يا أبا الغوث أغثني يا علي أدركني)،
ويتناسى رب العباد الذي قال عن نفسه في محكم كتابه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ

¹ انظر مثلاً: مستدرك الوسائل للميرزا النوري ٤٨٣/١٥

الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝^١

ولنا أن نسال: إذا كان الأئمة هم ملجأ المحتاجين ومفرج الملهوفين
وأمان الخائفين وقبلة الداعين، ولا تستجاب الدعوات إلا بذكر
أسمائهم، فأى فرق بين هذا وبين ما يزعمه مشركو مكة في أصنامهم!!!
نعم هناك فرق ... كان مشركو مكة يخلصون لله الدعاء في الشدة
﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّحْتُمْ إِلَى
الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝^٢

أما الذين يستغيثون بالأئمة ويدعون بأسمائهم فيشركون بالله تعالى
في الرخاء والشدة!

^١ سورة النمل آية ٦٢

^٢ سورة العنكبوت آية ٦٥

كفانا شعارات ...

لنقلها بكل وضوح: كفانا شعارات أيها الناس!

إلى متى نتكلم باسم أهل البيت ونحن لا نعيش التوحيد الذي عاشوه، نتعلق بالمخلوقين ونستغيث بهم عند الشدائد ونرغب في إنعامهم علينا ورزقهم لنا، ونُعرض عن الرزاق السامع لكل شكوى؟!!

إلى متى نتكلم عن حب الله تعالى وحب رسوله الكريم ولا تتحرك مشاعرنا لكلام الله تعالى وكلام رسوله الكريم اللذين يحضانا على التوجه لله تعالى وحده لا لأنبيائه ولا لغيرهم؟

إلى متى نتكلم عن اتباع أهل البيت ولا نعرف من هذا الاتباع إلا شتم الأموات والوقعة بين المسلمين وإثارة النعرات الجاهلية؟ أين نحن من جهود أهل البيت عليهم السلام المبذولة في ترسيخ معالم التوحيد في نفوس الناس ومحاربة البدع والخرافات التي طرأت على المجتمع المسلم؟

إننا بحاجة إلى وقفة نصحح بها مفاهيمنا ونحاكم فيها أنفسنا حتى
لا نكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا
﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^١.

وآخر دعوانا أن (الحمد لله رب العالمين)

^١ سورة الكهف آية ١٠٤

المراجع

- ١ - الاعتقادات مع تصحيح الاعتقاد - الشيخين ابن بابويه القمي والمفيد - تحقيق عصام عبد السيد - دار المفيد - الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.
- ٢ - بحار الأنوار - العلامة محمد باقر المجلسي - مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
- ٣ - التبيان في تفسير القرآن - محمد بن الحسن الطوسي الملقب بشيخ الطائفة - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي - مكتب الإعلام الإسلامي - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- ٤ - تفسير جامع الجوامع - الفضل بن الحسن الطبرسي - مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين - قم - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ٥ - التوحيد - ابن بابويه القمي (الملقب بالصدوق) - تحقيق سيد هاشم الحسيني الطهراني - نشر جامعة المدرسين - قم - الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ.
- ٦ - الخصال - ابن بابويه القمي (الملقب بالصدوق) - تحقيق علي أكبر غفاري - جماعة المدرسين في الحوزة - قم.
- ٧ - الصحيفة السجادية الكاملة للإمام علي بن الحسين - نشر جامعة مدرسين حوزة قم.

- ٨- الصحيفة السجادية - بإشراف سيد محمد باقر نجل سيد مرتضى
الموحد الأبطحي الأصفهاني - تحقيق مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام -
الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- ٩- علل الشرائع - ابن بابويه القمي (الملقب بالصدوق) - منشورات
المكتبة الحيدرية ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- ١٠- قرب الإسناد - أبو العباس عبد الله الحميري - مؤسسة آل
البيت لإحياء التراث - قم - الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- ١١- الكافي - الكليني - تحقيق علي أكبر غفاري - نشر دار الكتب
الإسلامية - الطبعة الرابعة - ١٣٦٥هـ.
- ١٢- المسائل السروية - الشيخ المفيد - المؤتمر العالمي لألفية الشيخ
المفيد.
- ١٣- مستدرك الوسائل - المحقق النوري الطبرسي - مؤسسة آل
البيت لإحياء التراث - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٤- نهج البلاغة - الإمام علي - تحقيق محمد عبده - دار المعرفة -
بيروت.
- ١٥- وسائل الشيعة - الحر العاملي - تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت
لإحياء التراث - الطبعة الثانية - قم.